بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 12 **الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق**

الدرس: تفسير القرآن الكريم **المبحث: سورة الإنسان**

التاريخ:29\11\2022 م **كتبه: عبدالله ضيف الستري**

ما زال البحث في تفسير الآية الثالثة من هذه السورة المباركة، واتضح لدينا إلى الآن عدة أمور:

أحدها: الوجه في تصدير هذه الآية المباركة بحرف التأكيد.

الأمر الثاني: البحث النحوي الذي يرتبط بالهداية وعدم تعديتها بواسطة حرف جر في هذه الآية المباركة.

الأمر الثالث: اتضح لدينا أن الهداية لها تقسيمات، هناك هداية بمعنى إنارة الطريق وهداية بمعنى الإيصال إلى المطلوب. وعلى كل تقدير الهداية تارة باطنية وهداية فطرية جبلية، وأخرى خارجة عن جبلة الإنسان كالهداية بتوسط الآيات الظاهرة في الكون أو بتوسط دعوى الأنبياء عليهم السلام.

هذا خلاصة ما تقدم معنا في البحث السابق.

البحث الرابع: ﴿إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبيلَ﴾ ما هو نوع هذه الهداية من بين الأنواع التي ذكرناها؟

لا شك قرينة قوله ﴿إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ أن الآية لا تتحدث عن الهداية بمعنى الإيصال إلى المطلوب؛ لأن الهداية بمعنى الإيصال المطلوب تكون على طريقة كن فيكون، فإذا كان البعض والبعض كان كفوراً سيلزم الجبر، وإذا كان بالاختيار فإذاً الهداية ليست من باب الإيصال إلى المطلوب.

فإذاً هذه الهداية في هذه الآية المباركة بمعنى إنارة الطريق والإرشاد.

ومن جهة أخرى هذه الهداية التي كانت الآية بصدد إظهار نعم الله على هذا المخلوق الذي لم شيئاً مذكوراً، لا محالة هي أعم من الهداية الفطرية الجبلية ومن الهداية بتوسط الآيات الظاهرة ودعوى الأنبياء عليهم السلام، فإذاً بهذا المعنى تكون أعم.

يبقى هنا، ما هو المراد من السبيل ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾؟ كلمة السبيل في العرف العربي واضح جداً، بمعنى الطريق أي أنرنا له طريقه في هذه الحياة.

هذه الكلمة في جذرها اللغوي (السين والباء واللام) استعملت في معنيين:

المعنى الأول: ما يدل على العمودية، إرسال شيء من علو إلى سفل، كما أسبلت الستار، يعني أنزلته من عال إلى أسفل أو تقول أسبلت السحابة الماء يعني أفرغته من علو إلى سفا.

المعنى الثاني: ما يدل على الامتداد، فيقولون من هذا المعنى الثاني أخذ السبيل بمعنى الطريق، فالطريق هو الشيء الممتد الذي يسير عليه الإنسان.

فإذاً ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ أي إنا أنرنا له طريقه في هذه الحياة.

بعد ذلك يصل البحث إلى دلالات قوله: ﴿إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾

البحث الأول: النحوي.

هذا النصب في قوله شاكراً وكفوراً هو نصب على الحالية، لكنهم اختلفوا في صاحب الحال، هل صاحب حال هو الضمير في هديناه أو أن صاحب الحال هو السبيل، جعل صاحب الحال هو السبيل فيه نوع من التكلف، أي يكون الطريق شاكراً وكفوراً، فلا بد أن نؤول حينئذ الشاكر بالشكر والكفور بالكفر، فطريق شكر وطريق كفر، وهذا فيه عناية زائدة.

بخلاف ما لو جعلنا صاحب الحال هو الضمير، أي المهدي، هذا الذي هديناه على حالتين شاكراً وكفوراً، وهذا المعنى هو الأقرب إلى الفهم العرفي.

البحث الثاني: تناوله الشيخ الطوسي رحمه الله في تفسيره، كأنه يريد أن يجيب عن إشكال مقدر، وهو أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وهداه فكان البعض منهم شاكرين والبعض منهم كفورين، فهذا جبر.

فيجيب أن هذه الآية المباركة على طريقة الآية واردة في سورة الكهف، وهي قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1] فليكفر بمعنى كما أن هذه الآية سورة الكهف في مقام التهديد، فما نحن فيه الآية في مقام التهديد، نحن قدمنا للجميع الاستعدادات الأولية، خلقناه وأودعنا الأدوات فيه وأنرنا له الطريق، فمن يخالف فسوف ينال الجزاء، فتكون الآية الشريفة في مقام التهديد.

نحن نتفق معه على أن هذه الآية الشريفة التي نبحث عنها ليست بصدد تخيير الإنسان بين اختيار طريق الشكر واختيار طريق الكفر، وإلا حينئذ لا معنى لمجازاتهم.

ولكن لا نسلم أن المقام هو مقام تهديد، وهذه الآية ليست نظير الآية في سورة الكهف، التهديد في الآية في سورة الكهف استفيد من الأمر، نظير قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا ما شِئْتُم﴾[2] ليس الغرض أن يطلب منهم أن يعملوا ما يشاؤوا، ولذا هذه الآية لإفادة التهديد، طبعاً على الخلاف بين القدماء والمتأخرين أن اعملوا استعملت مجازاً في التهديد أو أن الداعي هو التهديد.

فالتهديد في آية الكهف لأجل الأمر، أما فيما نحن فيه فهذه الآية تريد أن تبين أن السبيل الذي هدانا إليه هو سبيل اختياري، وأن الشكر والكفر واقع بتعبير العلامة الطباطبائي رحمه الله في مستقر الاختيار. مثل قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ﴾[3] أي بيّنا له طريق الخير وطريق الشر، لا أننا خيرناه بينهما، فباختياره انساق نحو أحدهما مع كوننا قد بيّنا له ما في كل واحد منهما من خير أو شر، فما نحن فيه من هذا القبيل. فالآية بصدد تقسيم ما يترتب على هذه الهداية، بعد أن بيّنا له الهداية هناك من الناس اتبعت طريق الشكر وطائفة من الناس اتبع طريق الكفر.

البحث الثالث: ملفت للنظر وقل من تعرض له من علماء التفسير، وهو أنه في جانب الشكر استعملت الآية صيغة اسم الفاعل إما شاكر، وفي جانب الكفر والإنكار استعملت الآية صيغة المبالغة ﴿إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ فلماذا لم يقل إما شاكراً وإما كافراً أو إما شكوراً وإما كفوراً؟ خصوصاً أن كلمة شكور في القرآن الكريم استعملت بكثرة؟ فلماذا هنا اختلف الأسلوب؟

---

[1] الكهف: 29
[2] فصلت: 40
[3] البلد: 10

بعض المفسرين -وهم قلة الذين تعرضوا لهذا المطلب- ارجعوا هذا الاختلاف إلى أمر لفظي، أنه حق الآية أن يقال إما شاكراً وإما كافراً، لكن قال كفوراً حتى يحصل تناسب مع اختتام كل آية، الذي هو نوع من السجع، لكن في القرآن الكريم -في العادة- يعبرون بتناسب الفواصل تأدباً؛ لأن السجع هو صوت الحمام، هديل الحمام.

نلاحظ لم يكن شيئاً مذكوراً، بصيراً، بعد الآية التي نبحث عنها سعيراً، كافوراً، فيقولون الأنسب أن يقول كفوراً. فإذا ﴿إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ فهذا التغيير الأسلوبي نشأ لأجل رعاية تطابق الفواصل.

لكن هذا لوحده لا يصلح ولا نقبله في القرآن الكريم، وحققت ذلك في البلاغة مراراً، أن يكون فقط المدار على هذا التطابق اللفظي.

القرآن ليس شعراً وليس نثراً كنثر أصحاب المقامات مثل الحريري وبديع الزمان الهمداني أن يصب المطلب ويكون محور البحث هذا التطابق اللفظي

اشتهيت الأزاد وأنا في بغداد

فرحت أجوب البلاد واقطع الفيافي والوهاد

ترتيب كلمات لا معنى ولها لا ترابط بينها، فهذا لوحده غير كاف في القرآن الكريم، وإن كان القرآن الكريم قد لاحظ التشاكلات اللفظية.

وإنما باعتقادي أن التعبير بصيغة مبالغة في المقام له أثر مهم، سيأتي عليه الكلام.